

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphane
Genel Ansiklopedisi

الدكتور أحمد مطاوب

عبدالقاهر الجرباني

بلاغته ونقده

النَّاشِر
وكالة المطبوعات
٢٢ شارع فهد السالم - الكويت

بيروت - ١٣٩٣ - ١٩٧٣

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

المقدمة

هذه بحوث في بلاغة عبد القاهر ونقده تكشف عن جهوده وتصوّر آراءه وتوضّح منهجه . وعبد القاهر ليس ممن نسيهم الباحثون ، فهو علم من أعلام الفكر الاسلامي أثري الدراسات العربية بما ألف في النحو والصرف والبلاغة والنقد ، وأرسى نظرية النظم التي أدار عليها مباحث اللفظ والمعنى والصور البيانية وإعجاز القرآن . وقد خاض الدارسون في بلاغته ونقده ولكن معظمهم نظروا اليه من جوانب معينة ووضعوا أمامهم مقاييس قبل أن يدرسوا كتابيه « دلائل الاعجاز » و « أسرار البلاغة » ، وأصدروا أحكاماً قبل أن يقفوا على آثاره ، وبذلك وجهوا كلامه وآراءه وجهات مختلفة وذهبوا مذاهب شتى : فمن قائل إنه أرسطوطاليسي المنحى ، وقائل انه نفساني المتزع ، وقائل انه نحوي المنهج ، وبذلك ضاع بين هذه الاتجاهات والتزع ولم تعرض بلاغته ونقده كما سطرها في كتابيه لتكون واضحة المعالم بيّنة السمات يقف عليها الدارس ليفهم منها ما يفهم ويفسر منها ما يفسر .

وكانت هذه التفسيرات مدعاة للعودة إلى كتابيه وقراءتهما كما تركهما وعرض بلاغته ونقده واستخلاص آرائه من غير تعصب وتفسيرها من غير تمسك بالاحكام السابقة ، لانه من الحيف أن نتخذ مما شاع وانتشر ميزاناً نزن به القديم فنقبل ما كان الاتفاق فيه واضحاً ونرفض ما كان الاختلاف فيه جلياً فنعظم الاول وننعي الثاني ناسين ان للقديم منهجه وان للحديث أسسه ولا ضير

الطبعة الاولى
١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م
بيروت

إذا التقيا لأنّ الكثير مما يشيع اليوم يتصل بالتراث ، ولا بأس إذا ابتعدا لأن الحياة في تطور ولأنّ الادب ومقاييسه في تغير .

ومن هنا اتجهنا إلى عبد القاهر لعرض بلاغته ونقده في ضوء كتابيه وبأسلوبه في معظم الأحيان ، موضحين منهجه وآراءه تاركين الكثير مما قيل لثلا يضطرب العرض وتذهب جهوده بين معجب لا يرى فضلاً لما جدّ في هذا العصر ومنكر لا يرى في القديم فائدة ونفعا .

وتبدأ بحوث هذا الكتاب بفصل رسم حياة عبد القاهر وأوضح جوانبها المختلفة وصور جهوده في الدراسات القرآنية والبلاغية والنحوية . ولم يكن الحديث عن حياته وآثاره بالسهل اليسير لأنّ القدماء لم يفصلوا القول في سيرته أو يجمعوا كتبه بل نرى الكثيرين منهم يهملون كتابيه البلاغيين ولا يعرضون الا لكتبه في الدراسات القرآنية والنحوية وذلك مما يعث على الاستغراب ويدعو إلى التأمل، ولكن الرجوع إلى المصادر المختلفة والوقوف على كتبه أعانا على ذلك وأعادنا إلى الرجل ما أغفله المتقدمون وفرط فيه المتأخرون .

وحيثما اتسق فصل حياته وآثاره كان الانطلاق إلى منهجه وآرائه. ويتجلى ذلك في نظرية النظم التي أقام عليها بلاغته ونقده وهي نظرية لا نجد منها عند السابقين الا شذرات تتمثل في كلام ابن المقفع والجاحظ وتتجلى في كتب الاعجاز . واذا كانت فكرة النظم مما شاع في بيئات المعتزلة والاشعرية فليس معنى ذلك انها كانت واضحة السمات وانما هي اشارات لم نجد من يفصل القول فيها غير عبد القاهر الذي أطال الكلام عليها وربط بها اللفظ والمعنى والصور البيانية واعجاز القرآن ، وبذلك كان صاحبها وكاشف أمرها . وقادته هذه النظرية إلى تغيير مفهوم اللفظ والمعنى الذي خاض فيه النقاد والبلاغيون وانتهى إلى أن الالفاظ لا تتراد لنفسها وانما تتراد لتجعل أدلة على المعاني وان تغييرها قد يفقد الكلام غرضه ورويقه وانتهى إلى أن العمدة في الصورة لا في اللفظ مجرداً من الدلالة ولا في المعنى وحده . ولكي تنضح جهوده في هذه المسألة عرضنا في

الفصل الثالث لفكرة اللفظ والمعنى عند السابقين وأوضحنا موقفهم منها لنبي عليها موقفه الذي حار فيه كثير من الباحثين ولنصل إلى رأيه المتصل بالنظم وهو رأي لا يميل إلى الالفاظ كل الميل ولا ينجح إلى المعنى الخالي من كل ميزة وانما هو الصورة التي نادى بها الجاحظ .

والصور البيانية والبديعة كانت محور كتاب « اسرار البلاغة » ولذلك وقفنا عندها في الفصل الرابع وقفة طويلة لأنها من أهم الدراسات التي خلقها القدماء . وقد كانت هذه الفنون مما عرفت ولكن المؤلفين لم يستطيعوا ان يجلوها كما جلاها عبد القاهر وان يضعوا لها القواعد والاصول . وهذه الصور البيانية والبديعة مرتبطة أشد الارتباط بنظرية النظم بل عنها تصدر وبها تكتسب مزيتها .

وليست هذه القضايا كل ما في كتابي « دلائل الاعجاز » و« أسرار البلاغة » بل هناك قضايا أخرى تتصل بالسرقات والذوق وتحليل النصوص وهي مسائل تنفرع من نظريته وتلتقي بها بعد ذلك لتكمل أبعاد الموضوع . وكان الفصل الخامس مجال الحديث عن السرقة والأخذ ، وهو فصل ليس فيه اسهاب لان عبد القاهر وقف من هذه المسألة وقفة أملتتها نظريته ومن هنا كان حذراً في الحديث عنها لأن المعاني الشائعة إرث تتداوله الاجيال .

وكان الفصل السادس وقفة عند القاعدة والذوق وهما الركنان الاساسيان في بلاغته ونقده ، فقد أولى القواعد والتعليقات أهمية عظيمة كما أعطى الذوق مكانة كبيرة واتخذ سبيلاً إلى فهم النصوص وتحليلها حينما كانت القاعدة تضيق أو حينما كان يعوزه التعليل .

وحيثما اتضحت نظرية عبد القاهر وبدت آراؤه جلية في اللفظ والمعنى والصور البيانية والبديعة والسرقات والذوق وصلنا إلى الفصل السابع لعرض مسألة اعجاز القرآن وموقفه منها . وكان لا بد ان يكون موضع هذا الفصل هنا لأنه يقوم على أسسه السابقة بل كل ما قام به من جهود وما بث في كتابيه من

أدلة تخدم هذه المسألة التي لا يمكن ان تفهم قبل عرض نظرية النظم وموقفه من القضايا الاخرى ، لان اعجاز القرآن الكريم ليس في تلاؤم الحروف ولا في تخير الالفاظ وسلاستها وسهولتها ولا في مقاطعه وفواصله ولا باستعاراته وحدها وانما في نظمه الذي فاق كل نظم . وبذلك حلَّ هذه المشكلة التي ذهبت فيها الآراء مذاهب شتى ، وفصل القول فيما أشار اليه السابقون ولم يولوه عناية كبيرة أو يقفوا وقفة طويلة فيها تأمل عميق وعرض بديع .

تلك جهود عبد القاهر وآراؤه التي لم تخرج عن نظرية النظم ، وقد دافع عنها دفاعاً قويا ولجَّ في توضيحها والرد على منكريها حتى كأنه كان في حومة الوغى يذود عن الحمى ويقارع الاعداء .

وكان لا بد في نهاية المطاف من ان يقف الفصل الثامن مشيراً إلى مصادر عبد القاهر التي تعددت وتنوعت حتى خيل انه لم يأتِ بجديد ، ولكن العمدة ليست في الجزئيات وانما في الكل الذي يقع فيه التفاضل . وقد وفق في جمع ما تناثر في الكتب وصاغ نظريته التي عرف بها وليس ذلك باليسير . ولم يكن بدّ كذلك من أن يصور هذا الفصل تأثيره في البلاغيين وموقفهم من بلاغته ونقده وان يعرض ما انتهت اليه هذه الدراسات .

ان هذه البحوث التي اتسعت واتصل بعضها ببعض تلخيص لآراء عبد القاهر وعرض لجهوده في أهم القضايا البلاغية والنقدية التي ما تزال جديدة وستظل كذلك لأنها أساس الدراسات الادبية ، ولأن معظم ما نراه يتفرع منها وينتهي اليها . وبذلك يمكن القول ان عبد القاهر لم يعبر الحياة كما عبرها الالوف ممن لم يضعوا نظرية أو يعللوا ظاهرة أو يرسوا أصولاً تؤثر في تطوير الادب ونقده ، وانما ظلَّ حياً يقود ويهدي ويقدم أفضل ما جادت به قريحته واعظم ما ينفع الدارسين على الرغم من تتابع القرون وتعاقب الاجيال .

الكويت : ١٩٧٢/١٠/٢٢ م
الدكتور أحمد مطلوب
أستاذ البلاغة والنقد في جامعتي بغداد والكويت
: ١٥ رمضان ١٣٩٢ هـ

حَيَاتُهُ وَأَشَارُهُ

الفصل الأول

حياته

نشأته وثقافته :

هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، ولد في مطلع القرن الخامس للهجرة في جرجان ، وهي مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان قال عنها ياقوت الحموي ان فيها « مياهاً كثيرة وضياعاً عريضة وليس بالمشرق بعد ان تجاوز العراق مدينة أجمع ولا أظهر حسناً من جرجان على مقدارها وذلك ان بها الثلج والنخل وبها فواكه الصرود والجروم وأهلها يأخذون أنفسهم بالتأني والأخلاق المحمودة ولأبي غمر في وصفها :

هي جنة الدنيا التي هي سَجَسَجَ يَرْضَى بها المحرورُ والمقرورُ
سهليةٌ جلييةٌ بحريةٌ يحتل فيها مُنْجِدٌ ومغِيرُ
وكأنما نوارها برياضها للمبصرِ سُنْدُسٌ منشورُ

وذكر أصحاب السير انه لما فرغ سويد بن مقرن من فتح بسطام في سنة ١٨ للهجرة كاتب ملك جرجان ثم سار اليها وكاتبه روزبان صول وبادره بالصلح على ان يؤدي الجزية ويكفيه حرب جرجان ، وسار سويد فدخلها وكتب لهم كتاب صلح على الجزية وقال أبو نجيد :

دعانا إلى جرجان والري دونها سوادٌ فأرضت منَ بها من عشائر